المحافظة الجديدة في أوربا : نظرة من البرتغال

جواو كارلوس إسبادا

من الشائع أن إرفنغ كرستول، الذي يعد في أحيان كثيرة «عراب المحافظة الجديدة»، قال إن أي محافظ جديد ليس إلا ليبرالياً صفعه الواقع غدراً. يبدو هذا واصفاً بقدر كبير من الدقة رحلتي الفكرية الخاصة على طريق اكتشاف ظاهرة المحافظة الجديدة. ليست هذه المقالة، في المقام الأول، إلا استذكاراً لهذه الرحلة وتأملاً لها. قد يجدها بعض القراء مُفْرطة في شخصيتها الباعثة على الملل. غير أنه يطيب لي أن أعتقد بأنها قد تفيد أولئك الأوربيين الذين يراودهم، مثلي أنا، شعور بالإعجاب بالثقافة الأنجلو – أمريكية وإحساس بالقلق إزاء نزعة العداء لأمريكا المتنامية في أوربا.

1. السفر إلى أكسفورد

يمكن القول إن هذه الرحلة بدأت خلال أعوامي في أكسفورد التي امتدت من 1990 إلى 1994. كنت أحضر أطروحتي للدكتوراه في الفلسفة تحت إشراف رالف داهرندورف Ralf Daherndorf، وأزور كارل بوبر Karl Popper، بمنزله في كنلي، إلى الجنوب من لندن، على نحو منتظم. قد لا أستطيع هنا أن ألخص ما أنا مدين به لهذين الرجلين العظيمين. إلا أنه يكفي أن أقول إن اللورد داهرندورف (وقد كان السير رالف في لقائنا الأول) والسير كارل توليا توجيه تطوري الفكري من نوع من الليبرالية اليسارية المعتدلة إلى ليبرالية طريق وسط (بالمعنى الأوربي لا الأمريكي)، واعية لصعوبات الليبرالية الخاصة. لا أبالغ في التبسيط حين أقول إن اثنتين من هذه الصعوبات كانتا منطويتين على أهمية استثنائية بالنسبة إلي.

يمكن وصف الأولى على أنها مشكلة جون ستوارت مل John Stuart Mill وثمة كم هائل من الدراسات كُتب عن الموضوع. بإيجاز شديد أقول: كنت أتساءل عن مدى كفاية مبدأ واحد بالغ البساطة، لمل، بالفعل، لإبقاء أي مجتمع حر حياً ونشيطاً. وفيما أرى لم يكن السؤال شديد التركيز على حدود تدخل الدولة في حيوات الأفراد. كنت قد تعلمت، ولو ببطء، أن الحكومات تميل إلى إساءة التصرف مع كل ما من شأنه أن يُنجز بنجاح مقبول من قبل المجتمع المدني والمشروع الحر. كان سؤالي، إذن، أخلاقياً بالدرجة الأولى: هل يتعين علينا، حقاً، أن نؤمن بأن كل ما يفعله أي فرد في دائرته الخاصة باق خارج نطاق حكم الآخرين الأخلاقي؟

يبقى هذا، فيما أرى، سؤالاً أخلاقياً جدياً بصرف النظر عما إذا كان متجاوباً مع تفسير مل لمبدئه الخاص أم لا. من الواضح أنه أصبح تفسير التيار الرئيسي لمبدأ مِل، تفسيراً يجري تبنيه الآن كما لو كان عقيدة مقدسة جامدة (دوغما) من جانب ثقافتنا العامة، خصوصاً في الأوساط الأكاديمية والإعلامية. هذا الواقع، كما يحلو لإرفنغ كرستول أن يقول، يطرح مشكلات جدية. وهذه المشكلات لا تلبث أن تصبح أكثر جدية وواقعية بالنسبة إلى الأمهات والآباء الشباب الذين يرغبون في تنشئة أولادهم تنشئة صالحة في بيئة غارقة في بحر من النسبية المروَّجة من قبل شاشات التلفزيون ومعلمي المدارس. تلك كانت حالتنا زوجي، غارثا (Garca) وأنا، لدى إقامتنا في أكسفورد مع ابنتينا إيزابيل Isabel وديانا Diana. تعرضت ليبراليتنا للصفع غدراً من جانب هذا الواقع. هل يتعين على الآباء والأمهات أن يكونوا مستعدين لتلقين أولادهم أن كل نمط من أنماط السلوك الشخصي يوازي أي نمط آخر، شرط أن تبقى أنماط السلوك هذه إما أفعالاً تخدم الذات أو أفعالاً قائمة على التوافق المتبادل؟

من المؤكد أن من الممكن القول إن مبدأ مل لا يُلْزمنا بقبول جميع أشكال السلوك على أنها سليمة أخلاقياً. إنه يكتفي بإلزامنا بتحمل أشكال متباينة من التصرفات طوال بقائها بعيدة عن إلحاق الأذى بآخرين. غير أن القضية الأخلاقية

الرئيسية تبقى: هل تستطيع الليبرالية أو الحرية أن تستند إلى مبدأ صامت أساساً فيما يخص فضائل أو مواصفات أي مجتمع حر أو أشخاص أحرار ومسؤولين؟ أميل إلى الشك، وما لبثت شكوكي أن تعززت وأنا عاكف على كتابة أطروحتي للدكتوراه في الفلسفة عن ليبرالية فريدريش إي. هايك واشتراكية رايموند بلانت Rymond Plant، وهي الأطروحة التي نُشرت لاحقاً بعنوان: حقوق المواطنة الاجتماعية: نقد لكل من إف. إي. هايك. ورايموند بلانت (لندن: "سلسلة سينت إنتوني"، نيويورك: مطبعة سينت مارتن، 1995)، مع تقديم اللورد داهرندورف. تعززت هذه الشكوك لدى وقوفي على الصعوبة التي واجهت هايك في سوق حجة أخلاقية ضد كل من النزعتين النسبية والذاتية. وكما حاولت أن أبين في الكتاب المذكور، فإن هايك يعلق أهمية كبيرة على القواعد العامة للسلوك العادل حفاظاً على المجتمع الحر. غير أن أكثرية هذه القواعد لا تبالي، مرة أخرى، إلا بـ«احترام الآخر» (على النقيض من احترام الذات)، إضافة إلى أن تسويغها يميل إلى أن يكون مستنداً فقط إلى الانتقاء الذاتي التطوري. ومع كل الاحترام الواجب لفكر هايك العظيم الذي نهلتُ من معينه بغزارة، لا أظن أن هذا الفكر قد أعطى جواباً مقنعاً لما عددته صعوبتي الأولى في إطار الليبرالية: هل تستطيع الليبرالية أن ترتكز على مبدأ يبقى صامتاً أساساً إزاء جملة فضائل ومواصفات أي مجتمع حر؟

كانت صعوبتي الثانية ذات علاقة بالأولى غير أنها ذات طبيعة أكثر تحديداً. كنت قد قررت الذهاب إلى بريطانيا والتخلي عن موقعي المريح نسبياً في البرتغال – حيث كنت مستشاراً أساسياً لرئيس الجمهورية ماريو شواريز Mario Soares، بسبب إعجابي الشديد بالتراث السياسي الأنجلو – أمريكي – أي ذلك التراث المتميز عن نظيره العائد للقارة الأوربية والذي أعرفه جيداً جداً. سيكون من المتعذر هنا تذكر كل ما تعلمته عن التراث ونمط الحياة الأنجلو – أمريكيين خلال فترة إقامتي في بريطانيا، وفي الولايات المتحدة، فيما بعد. ثمة كان، مرة أخرى، نوع من التنافر بين نظريتي الليبرالية ومعايشتي العملية للواقع. هذا التنافر كان يحيرني.

من تجربة العيش البسيطة في بريطانيا، استطعت أن أكوّن انطباعاً قوياً عن سمة بريطانية مميزة، سمة كانت وما زالت غائبة عن معظم الثقافات القارية، الأوربية الجنوبية على الأقل. يطيب لي أن أعدها نوعاً من الإحساس بالواجب وضبط النفس المتزاوج بلطف مع نوع من الإحساس بالسخرية فيما يخص الذات – نوعاً من الموقف القائم على عدم المبالغة في التعامل الجدي مع الذات ولكن مع الاستعداد للنظر إلى الواجب بجدية، كما كان يحلو لكارل بوبر أن يقول. ومما ينطوي الآن على ما يكفي من الغرابة أن أكثرية الكتابات الأكاديمية عن الحرية والليبرالية التي صادفتها قلما أتت على ذكر هذا الإحساس الأخلاقي المميز للبريطانيين. بدا الأمر كما لو أن فكرة السيد النبيل، الجنتلمان، كانت على الدوام أسطورة ابتُدعت إما من قبل الأجانب أو من أجلهم، غير أنني بقيت مع ذلك قادراً على وصف آلاف التجارب الشخصية لحياتي في بريطانيا، تلك التجارب التي سلَّطَتْ الضوء على روح جنتلمانية كامنة في العمق. لماذا كان من شبه المتعذر أن أهتدي إلى كتاب واحد عن النظرية السياسية المعاصرة الخاصة بالجنتلمانية والإحساس الأخلاقي؟ أضف إلى ذلك أنني كنت أحصل على انطباع يشي بأن هذا الصمت عن الجنتلمانية في وسائل الإعلام والمدارس كان مسؤولاً، بهذا الشكل أو ذاك، عن الاهتراء المتدهور الواضح لسلوك الشباب في بريطانيا. مرة أخرى، كانت ليبراليتي النظرية تتعرض للصفع الغادر بيد الواقع.

ثمة بُعْد آخر لهذه الصعوبة الثانية، بُعْد قد يكون من الجدير التلميح إليه الآن، وسوف أعود إليه لاحقاً. يمكن إطلاق اسم سؤال اللورد كْوِنْتُون Quinton على هذا البعد. ففي الفصل المكرس للفلسفة السياسية في كتاب تاريخ أكسفور للفلسفة الغربية، يطرح آنتوني كونتون على نفسه السؤال التالي: لماذا تمخّضت أفكار لوك عن ثورة محافظة في إنجلترا القرن السابع عشر، وعن ثورة معتدلة في أمريكا القرن الثامن عشر، في حين أنها لم تنتج إلا تأثير الكحول في معدة خاوية لحظة عبورها القناة الإنجليزية إلى داخل فرنسا القرن الثامن عشر؟ من شبه المتعذر المبالغة بأهمية هذا السؤال البسيط والبعيد عن التباهي (والبهورة)، الذي سأعود

إليه في هذه المقالة. أما الآن فيكفيني ببساطة أن أقول إن هذا السؤال كان شاغلاً لي على الدوام خلال وجودي في بريطانيا. ثم ما لبثتُ، وعلى نحو تدريجي، أن رحتُ أخمّن أن جزءاً من الجواب يجب البحث عنه خارج نطاق النظرة السياسية، بالتحديد. بدا أن هناك نوعاً من روح الشعب، من المزاج العام، نوعاً من الخليط الغريب من العادات والمواقف والتصرفات التي بدت كما لو كانت مميزة حصراً للشعوب الناطقة بالإنجليزية، إذا استخدمنا عبارة ونستون تشيرتشل الشهيرة. إن ليبراليتي النظرية، أو أي «إية» أخرى ربما، بدت عاجزة عن غرس هذه الروح أو هذا المزاج. ولكن ما السبب الكامن وراء مثل هذه الروح؟

2. المحافظون الجدد: الصلات الأولى

فيما كنت عاكفاً على التصارع مع جملة هذه الأسئلة وقعتُ صدفة على كتاب من تأليف امرأة اسمها غيرترود هملفارب. عنوان الكتاب: عقول فكتورية (نيويورك: كنوبف، 1968. شيكاغو: إيفان آر. دي. 1995). وما زلت أذكر جيداً التأثير الهائل الذي أحدثه في. لا أعلم بدقة كيف اهتديت إلى الكتاب ولماذا. أظن أنني كنت أبحث عن سيرة هملفارب الفكرية للورد آكتون Lord Acton في مكتبة سينت أنتوني الصغيرة في كليتي الأكسفوردية. لم يكن الكتاب عن آكتون موجوداً، غير أنني صادفت كتاب عقول فيكتورية. بدأت قراءته ولم أستطع التوقف حتى النهاية.

هوذا، إذن، كتاب يتحدث عن الإحساس الأخلاقي لدى الشعوب البريطانية والنخب البريطانية في القرن الثامن عشر. هوذا، إذن، كتاب يقول إن مزاجاً عاماً، روحاً شعبية عامة، شكّل ركيزة لبريطانيا الفكتورية، وحظي بتبني حتى مثقفين تقدميين من أمثال جون ستوارت مل. وهوذا، إذن، كتاب يؤكد أن هذا المزاج أو الروح إن هو إلا مزاج أو روح الجنتلمان. «أنا الآن لا أؤمن بشيء غير أنني لست أقل عدم إيمان بالأخلاق... أعني أنني أعيش وأموت جنتلماناً إن أمكن». كانت هذه كلمات [الباحث والناقد البريطاني] لسلي ستفن Leslie Stephen بعد التخلي عن

السعي إلى استنباط نظام أخلاقي من الداروينية، كما تذكرتْ هملفارب، بين عدد كبير من أمثلة أخرى (ص: 290).

مباشرة أسرني هذا الكتاب. أخيراً نجح في إفهامي ما كنت أعيشه في بريطانيا. غير أن جميع الرؤى الجديدة تجلب معها مشكلات جديدة. وها هوذا كتاب عقود فكتورية قد جلب لي مشكلة جديدة: الدين. لا أعني أنني كنت ضد الدين. فبعد دراسة عقلانية كارل بوبر النقدية، كنت قد أدركت أن العقلانية العقائدية الجامدة (الدوغمائية) قاهرة للذات ومسؤولة بالفعل عن تفريخ مجتمعات مغلقة – لا مجتمعات مغلقة لا عقلانياً. وهذا مبعث ما يكفي من الدهشة، بل مجتمعات مغلقة عقلانياً. كنت أيضاً قد قرأت توكفيلي الخاص – عن طريق رايموند آرون Raymond Aron، بالمصادفة – وأدركت كيف كان اليعاقبة المعادون للدين قد قادوا فرنسا إلى الكارثة. غير أن خطاب غيرترود هملفارب لم يكن فقط عن التسامح مع الدين من جانب النزعة العقلانية بل وعن الدور النقدي الذي كان الدين قد اضطلع به في بروز مجتمع ليبرالي وتعززه في بريطانيا. متذكرة عمل إيلي هاليفي Elie Halevy، كانت هملفارب تلمح «بطريقة ما» إلى أن أياً من الأنظمة الليبرالية الأكثر استقراراً لم يكن أساساً، أو في المقام الأول، نتاج فلسفة عقلانية بل حصيلة نوع من التزاوج والتوتر بين قطبي الدين والفلسفة. هذا بالذات لم يكن خطاباً فلسفياً، بل هو خطاب تاريخي قائم على التجربة. لا بد لي من أن أقول إن هذا، حسب ما أرى، أدى إلى جعل الأمر أكثر إقناعاً، رغم بقائه إشكالياً، وسوف أعود إليه فيما بعد. للحظة الراهنة هاكم لمسة من لمسات أسلوب هملفارب:

النفعية، الدارونية، الوضعية، العقلانية، النقد الإنجيلي، والنزعة الإنسانية الإلحادية – ما من واحدة من هذه النزعات نجحت لا في تقويض الأخلاق، كما خاف البعض، ولا في توفير «محرك جديد» للأخلاق كما كان يأمل ماكاولي Macaulay وآخرون. تمثل ما أدام الأخلاق الفكتورية جوهرياً بما ألهم بها في البداية – بنوع من النزعة الإنجيلية المتسامحة، البعيدة عن النزعة اليقينية... تلك «النواة المركزية» للحياة الأخلاقية لعلها كانت المركز العصبي للتاريخ الإنجليزي. هنا

بالذات جرى التوفيق بين الأضداد غير القابلة للتوافق، جرت تهدئة الخواطر الملتهبة، تم إسكات المصالح والإيديولوجيات... ليست معجزة إنجلترا الحديثة الحقيقية (تعبير هاليفي الشهير) كامنة في أنها نجت من الثورة، بل في كونها قد هضمت وتمثلت عدداً كبيراً من الثورات الصناعية، الاقتصادية، السياسية، الثقافية، دون الاستعانة بالثورة. (ص:291 و292).

❖ ❖ ❖

ما كان للقائي الثاني بالمحافظة الجديدة أن يأتي منطوياً على قدر أقل من الإثارة الدرامية. وقد حصل هذا صيف 1995 بشيكاغو، التي كنت قد زرتها بهدف حضور لقاء سنوي لرابطة العلوم السياسية الأمريكية. وفور وصولي تقريباً ذهبت إلى معرض الكتاب المألوف ووقعت مباشرة على كتاب صادر للتو: المحافظة الجديدة: سيرة ذاتية لفكرة معينة (نيويورك: فري برس، 1995)، تأليف شخص يدعى إرفنغ كرستول. لم تكن لدي أي فكرة عن أن إرفنغ كرستول وغيرترود هملفارب كانا زوجين. كنت أعرف بشيء من الضبابية أن كرستول كان رئيس تحرير مجلة الببليك إنترست الفصلية، التي كان كل من داهرندورف وبوبر قد أطرياها ولكنني نادراً ما قرأتها. هذه الإشارات كانت على أي حال، كافية، فاشتريت الكتاب.

شكل هذا الكتاب اكتشافاً حقيقياً. قرأت صفحاته الـ486 في جلسة واحدة تقريباً وفوّتت على نفسي أكثرية جلسات ندوة رابطة العلوم السياسية الأمريكية (APSC). وعلى نحو شبه مباشر اهتديت إلى دين المحافظين الجدد وأصبحت واثقاً ثقة مطلقة بأن من واجبي أن ألتقي إرفنغ كرستول وغيرترود هملفارب (اللذين كنت للتو قد علمت بزواجهما، بالمناسبة، عبر مقالات السيرة الذاتية في كتاب كرستول). من الصعب، على أي حال، أن أقدم اليوم شرحاً لما ترك أكبر الأثر في نفسي من هذا الكتاب في صيف ذلك العام (يذكر، بالمناسبة، أن الكتاب نُشر باللغة البرتغالية في 2003).

ثمة كان، بطبيعة الحال، نوع من القرابة بين مسارينا الفكريين، إذا جاز التعبير، على الرغم من أن خمساً وثلاثين عاماً من الزمن كان يفصل بين مسارهما ومساري أنا. كان كرستول قد انتقل من ثوريته المتطرفة في شبابه إلى مواقع يسار الوسط لاحقاً، وبعد ذلك راوده الشعور القائل بترك اليسار له ولأصدقائه عبر احتضان المزيد من القضايا الثقافية المجنونة واليسارية بدلاً من قيامه هو بترك اليسار والتحرك نحو اليمين. من الصعب العثور على وصف أفضل لمساري الخاص. ثمة كان، مع ذلك، ما هو أكثر من مجرد قرابة بين اثنتين من السير الذاتية في هذا الكتاب.

ثمة كان، أولاً، ذلك الجمع بين نظرة ليبرالية واضحة (بالمعنى الأوربي) إلى الأساسيات – نقد النزعة الطوباوية، الدفاع عن التراث الأنجلو – أمريكي مقابل نظيره الفرنسي، نقد النزعة التسووية – من جهة، ومعارضة قوية للثقافة المضادة التي هي شديدة الندرة لدى ليبراليي أوربا من جهة ثانية. يتألف الجزء الثاني من كتاب المحافظة الجديدة، وهو بعنوان: العرق، الجنس، والعائلة، من ستة فصول مدمرة وكاسحة عن جنون مدارسنا وقنواتنا التلفزيونية – تحديداً ذلك النوع من المشكلات التي كانت تقض مضجع زوجي ومضجعي أنا ونحن في أكسفورد.

ثمة كانت، ثانياً، سلسلة طويلة من الإشارات إلى عدم صلاحية آراء هايك و[ملتون] فريدمان في معركة الأفكار ضد الثقافة المضادة (يبقى الفصل التاسع وهو بعنوان: الرأسمالية، الاشتراكية، والعدمية ضرورياً من هذه الناحية، غير أن هناك فصولاً أخرى غير قليلة). يدفع هذا كرستول إلى تقديم دفاع عن الرأسمالية يكون مختلفاً عن دفاع كل من هايك وفريدمان بمعنى عدم الصمت بشأن الحياة الأخلاقية. على الدوام كانت الرأسمالية، برأي كرستول، معززة بالثقافة والأخلاق – هذه الميزة التي يطلق عليها أحياناً اسم «الأخلاق البرجوازية»، أو «الأخلاق البروتستانية»، أو حتى «التراث اليهودي – المسيحي». حين كانت هذه الأفكار الأخلاقية توافقية بالدرجة الأولى، كان ممكناً، بالطبع، ومغرياً على الصعيد الثقافي والفكري وصف المجتمع الرأسمالي من منطلقات محض ميكانيكية: على

أنه مجتمع قائم على «الخوف من الموت العنيف»، [القتل] (هوبز)، أو مستند إلى «شرور خاصة، خيرات عامة» (ماندلفيل). فقط حين تصبح المرجعيات الأخلاقية موضع جدل وتبدأ بالاهتراء، ننتبه إلى أهميتها. درج رايموند آرون، بالمناسبة، على القول بأننا نحقق أفضل آيات النجاح في التنبه إلى قيمة النمو الاقتصادي – مثلها مثل قيمة الحرية – عندما نبدأ نحس بأننا لا نملكها. يمكن قول الشيء نفسه عن الأخلاق البرجوازية.

إن سؤال: ومن أين تأتي هذه الأخلاق البرجوازية؟ بات الآن شبه حتمي لا مهرب منه تقريباً. لا أظن أن كرستول كان كلي الوضوح حول هذه النقطة. غير أنه كان، فيما أرى، واضحاً إلى حد كبير بشأن نقطة معينة: نقطة أن رأس المال الأخلاقي الداعم للرأسمالية، أو الليبرالية، أو الحرية، ببساطة، ليس من «اختراع» أو «صنع» الليبرالية. على نحو ما كان ذلك الرأسمال الأخلاقي موجوداً ونبتت الرأسمالية من تربته، تدريجياً لا عبر المجابهة. وبالفعل فإن المجتمعات التي كانت فيها الأنظمة الليبرالية الأكثر نجاحاً – المجتمعات الناطقة بالإنجليزية – كانت تلك التي لم تكن فيها مقولتا الحرية ورأس المال الأخلاقي متجابهتين. بعبارة أخرى، من شأن أي نظام ليبرالي أن يكون أكثر نجاحاً بمقدار ما يكون أقل استهدافاً للتفوق – أقل استهدافاً لتدمير جميع الافتراضات والمسلمات ما قبل الليبرالية لا لشيء إلا لأنها لم تكن مستنبطة من مقدمات وفرضيات ليبرالية. (وجهة نظر مشابهة يمكن العثور عليها، بالمناسبة، في كتاب إدموند بورك Edmund Burke: تسويغ للمجتمع الطبيعي وفصل كارل بوبر بعنوان: نحو نظرية تراث عقلانية، في كتابه: تأملات وتفنيدات.

3. العودة إلى أوربا

إذا كان هذا هو هكذا، فإنه يلقي بضوء جديد على ما سبق لي أن أطلقت عليه اسم سؤال اللورد كُوِنْتُون: لماذا فعلت أفكار لوك فعل الكحول في المعدة الخاوية لحظة عبورها القناة الإنجليزية إلى قلب فرنسا؟ يكمن السبب في تعرض أفكار لوك على القارة لنوع من إعادة التفسير والتأويل وصولاً إلى إلباسها ثوب

مشروع ثوري متطرف صالح لعملية إعادة الهندسة والتصميم الكاملة للمجتمع – على مختلف الأصعدة السياسية، الاجتماعية، والأخلاقية.

أما في بريطانيا وأمريكا فإن أفكار لوك كانت، على النقيض من ذلك، قد تزاوجت ببساطة مع التقاليد البريطانية القديمة القائمة على مبدأ الحكم المحدود. فبدلاً من أن تشكلا مشروعاً لمجتمع جديد وأخلاق جديدة، كانت الثورة الإنجليزية في 1688 والثورة الأمريكية في 1776، أساساً، وإن لم يكن حصراً، إعادة تأكيد لحقوق الإنجليز الأحرار في أن يعيشوا حيواتهم كما درجوا على عيشها من قبل – في ظل الحماية المشتركة لقوانين الأرض. بكلمات أخرى، ما نطلق عليه اليوم اسم الديمقراطية الليبرالية إنما انبثق من الأراضي الأنجلو – أمريكية بوصفها الثمرة الطبيعية لأنماط حياة قائمة، ملتزمة بالقانون، ومراعية للأخلاق. ولهذا السبب فإن الديمقراطية الليبرالية بين الشعوب الناطقة بالإنجليزية ظلت تُعْزى طبيعياً إلى روح الفضيلة والواجب. ولهذا السبب مرة أخرى، فقد ظلت راسخة الجذور رسوخاً هائلاً. وقد بقيت الشعوب الناطقة بالإنجليزية على الدوام في طليعة من يبادرون إلى النهوض دفاعاً عن حرياتها العزيزة – عن نمط حياتها.

أما في أوربا القارية فقد ظل المشروع الليبرالي ميالاً، على النقيض من ذلك، إلى أن يُفهم على أنه مشروع نقيض: مناقض لجميع أنماط الحياة القائمة لا لشيء إلا لأنها كانت موجودة سلفاً، بمعنى من المعاني؛ لا لشيء إلا لأنها لم تُصمم من قبل "العقل". تمخض هذا عن تفريخ حالة دائمة من عدم الاستقرار في السياسة الأوربية كما في "الليبرالية" الأوربية. ومتضافراً مع استخفاف واسع الانتشار بنظام الحكم المقيد أو الدستوري، ما لبث هذا أن أفضى إلى إخضاع السياسة الأوربية، على نحو كلبي مشؤوم، لقطبين بعيدين عن الليبرالية: قطب «الليبراليين» الثوريين من جهة، وقطب «المحافظين» فرسان الثورة المضادة من الجهة المقابلة. والقطبان، كلاهما، كانا عازمين على توظيف جهاز الحكم توظيفاً مطلقاً دونما حدود لدفع برامجهما الخاصة إلى الأمام. وصدامهما المنافي لليبرالية – الصدام بين المشروع الليبرالي، إذا

جاز التعبير، وأنماط الحياة التقليدية – كان أساس الضعف التاريخي للديمقراطية الليبرالية الأوربية (مقارنة بالديمقراطية الليبرالية لدى الشعوب الناطقة بالإنجليزية).

تساعد المعارضة المضلِّلة على تفسير سمتين أخريين مهمتين من سمات السياسة الأوربية: ما يجعل التقدميين ميالين لأن يكونوا نسبيين، وما يجعل أنماط الحياة التقليدية أو الشعبية تبدو، بالضرورة، نابعة، على نحو طبيعي، من الديمقراطية الليبرالية؛ وأن يكون "التقدميون"، الأوربيون ملزمين بالنزوع إلى النسبية إن هو إلا نتاج لفهمهم المعكوس للحرية؛ هذا من ناحية. ومن الناحية الأخرى، لا تبدو أنماط الحياة التقليدية في أوربا خارجة، بالضرورة من رحم الديمقراطية الليبرالية لأن الحرية كثيراً ما رُبطت اصطناعياً بثقافة معكوسة تشكل تهديداً لأنماط الحياة تلك.

قد يبدو هذا مفرطاً في التجريد كما في الاتصاف بالصفة التاريخية. ليكن، فالحقيقة هي أن ذلك يلقي بعض الضوء على الظروف الحالية للسياسة الأوربية. بإيجاز شديد، تبدو السياسة الأوربية الراهنة قد استطاعت التغلب على الصعوبات المذكورة قبل قليل – غير أنني أميل إلى القول بأنها ما زالت مرئية تحت قشرة الظروف الحالية.

لعل إحدى أكثر سمات السياسة الأوربية الحالية إدهاشاً هي، بصراحة، سمة الاحتكار الافتراضي التي نجحت الثقافة المضادة أن تحققه بالنسبة إلى النخب. قال أحد أصدقائي الأمريكيين: إذا كانت عبارة «حروب ثقافية» غير معروفة تقريباً في أوربا، فإن هذا أوضح دليل على أن أحد الطرفين منتصر في تلك الحروب: طرف الثقافة المضادة.

ليس سهلاً تفسير هذه الحالة للأمور. من المؤكد أنها منطوية على عنصر قوي ذي علاقة بالأجيال؛ إن الثوريين الجذريين السابقين من جيل ستينيات القرن العشرين هم الممسكون الآن بدفة إدارة أكثرية المؤسسات النخبوية، أقله في جبهة اليسار. غير أن هذا لا يفسر غياب نوع من النقد للثقافة المضادة في الأوساط غير

اليسارية. سلسلة طويلة من الأسباب، التي يتعذر التوقف عندها هنا، تتزامن، على ما يبدو، مع هذا الغياب.

يتعين على المرء، أولاً، أن يتذكر، بما يكفي من الوضوح، غياب ظاهرة المحافظين الجدد في أوربا. كما أسلفت، وكما هو معروف دون ذكر، أن الليبراليين الهايكيين (أو المحافظين) لا يستسيغون خوض الحروب الثقافية. إلا أن معظم المحافظين الأوربيين ليسوا حتى هايكيين. إنهم محافظون «دولتيون» في المقام الأول، محافظون يتقاسمون مع اليسار إيماناً لا حدود له بالاحتكار الآخر للنخب الأوربية: بمشروع أوربا اتحادية، بذلك المشروع الذي يستطيع أن يوفر إمكانية إلقاء «الدولة القومية البالية» المزعومة في سلة مهملات التاريخ.

لست هنا بصدد مناقشة المشروع الأوربي، ويطيب لي أن أقر بأنني كنت وما زلت مؤيداً لفكرة أوربا تمت إعادة وحدتها قائمة على ركيزة الدول القومية. غير أن علي أن أضيف أن الفكرة الاتحادية، الفدرالية – فكرة أن أوربا تستطيع بهذا الشكل أو ذاك، أن تتحرر من تواريخها القومية الممتدة قروناً من الزمن – فكرة زائفة وخاطئة. ليست إلا طبعة أخرى من ذلك المفهوم المصطنع للحرية أو الليبرالية الذي سبق له أن ظل يجر أوربا إلى نوع من الصراع العقيم بين الثورة والماضي – إذا حذونا حذو توكفيل.

غير أن الحقيقة تبقى هي هي؛ فلفكرة «أوربا الاتحادية» جاذبية هائلة بالنسبة إلى النخب الأوربية، يميناً ويساراً على حد سواء. وعلى نحو ما فإن هذا يرعى نوعاً من الثقافة العامة الخاضعة بقوة للثقافة المضادة – التي تكون، بدورها، ميالة طبيعياً لأن تنمو وتزدهر في أوساط الأجهزة البيروقراطية. ولا تلبث هذه الحالة أن تتعزز كثيراً تحت تأثير التراث الدولتي، القوي في أوربا القارية جنباً إلى جنب مع مجتمعها المدني الضعيف نسبياً.

مما يبعث على الحزن أن هذا كله لا يرقى إلى مستوى أي أخبار سعيدة بالنسبة إلى أوربا. فالمشروع الفدرالي الاتحادي وهيمنة الثقافة المضادة يتضافران

لتفريخ سلسلة طويلة من التوترات في قلب المجتمعات الأوربية التي لا تطمئن، كي لا نقول ما هو أكثر من ذلك، إلى حقيقة أنهما من احتكار النخب تقريباً. ثمة ردود أفعال شعبوية معادية لليبرالية، حركات فاشية – جديدة بشعة أحياناً، تطفو على السطح بين الحين والآخر، وتفوز بالتأييد الشعبي أحياناً – فتغرق النخب الاتحادية، الفدرالية في بحر من الدهشة والذهول. ومثل هذه التواترات لا تزيد إلا سوءاً وتفاقماً إذا ما تمت المبالغة في الإسراع بدفع عجلة المشروع الاتحادي بين الدول الجديدة الأعضاء من أوربا الوسطى والشرقية – وهي دول ذوات ثقافات أكثر تقليدية وشديدة الغيرة على هوياتها القومية. علاوة، لدينا الآن هذه النزعة المتنامية من العداء لأمريكا، وقد تضافرت مع معاداة السامية، التي دأبت أكثرية النخب الأوربية على السماح بنموها بنوع من اللامسؤولية – إذا لم نقل على تشجيعها الفعال. أخيراً ولكن ليس آخراً، إننا أمام زحمة توترات جدية مرتبطة بالكتلة السكانية الإسلامية المتنامية، تلك الكتلة التي تشكل تربة خصبة تمكّن الإسلام المتطرف من تجنيد إرهابييه.

4. المحافظة الجديدة في أوربا

مرة قال إدموند بورك إن سيادة الشر مشروطة فقط بامتناع الخيِّرين عن الفعل. إنه قول صحيح مئة بالمئة. ومن الجهة المقابلة، لا يتعين على أنصار الخير أن يخترعوا ما يتعين عليهم فعله. يكفي أن يتبعوا ما تمليه عليهم حصافتهم.

هذا هو الوضع في أوربا أساساً. ليس ثمة ما يدعو إلى اختراع المحافظة الجديدة في أوربا. إنها موجودة سلفاً. لا كعقيدة، بالتأكيد، ولكن كنزوع مضمر بين صفوف «فصائل صغيرة» مهتمة بأعمالها، ومتعرضة بالمقابل لعداء قوي من جانب حَمَلَة راية الثقافة المضادة. إنها موجودة لدى الأسر المسكونة بهاجس القلق إزاء التعليم الضعيف الذي يحصل عليه أولادها من المدارس الحكومية الرسمية؛ إنها حاضرة في أوساط الباحثين المصدومين باهتراء التعليم الليبرالي المتدهور في جامعات الدولة؛ إنها هناك بين صفوف المتدينين العاجزين عن فهم السبب الكامن وراء صيرورة الدين – المسيحية واليهودية، بعبارة أكثر دقة – فجأة موضع شك وارتياب

في أوربا؛ إنها ماثلة بين صفوف عامة الناس جميعاً، أولئك الناس الذين باتوا لا يستطيعون مشاهدة البرامج التلفزيونية مع أولادهم؛ إنها موجودة، باختصار، لدى جميع أولئك الذين لا يستطيعون الموافقة على تدمير الطابع الجنتلماني الذي طالما ظل، وعلى الدوام، ركيزة داعمة للحرية المتمدنة المتحضرة.

إن ما تحتاجه هذه الفصائل الصغيرة كلها، ما نحن جميعاً بحاجة إليه، هو الإحساس الواضح بأننا لسنا هدفاً لهجوم الحرية – بل نحن ضحايا نوع من التفسير اليعقوبي (المتزمت) للحرية، ذلك التفسير الذي سبق له في الماضي أن جعل الديمقراطية الليبرالية في أوربا بالغة الهشاشة والوهن. إننا بحاجة إلى الطاقة التي تؤهلنا لتأكيد وجهات نظرنا – لا أن ننطلق في رحلة طوباوية حالمة نحو مجتمع كامل ومستحيل، بل أن نسعى فقط لـ«استعادة توازن المركب الذي نبحر فيه». إذا جاز لنا استخدام تعبير إدموند بورك.

ما ينقصنا، باختصار شديد، متمثل أساساً بنوع من إعادة تأكيد ما قاله بورك وتوكفيل في أيامنا. إنها إعادة تأكيد الديمقراطية الليبرالية بوصفها إطاراً يحمي مزاجاً أخلاقياً ويحميه مثل هذا المزاج أو الروح. بكلمات أخرى نحن بحاجة لأن نفهم أن على أنصار الديمقراطية الليبرالية في أوربا ألا يبقوا صامتين فيما يخص الحياة الأخلاقية التي تشكل ركيزة الحرية وعمادها. وعلينا أيضاً أن ندرك أن من واجبنا أن ندافع عن الحياة الأخلاقية لمجتمعاتنا بوصفها عنصراً حاسماً من عناصر دفاعنا عن الديمقراطية الليبرالية. يمكنني أن أقول، دون تردد، إن هذا هو البرنامج البسيط للمحافظين الجدد في أوربا – أي لليبراليين الأوربيين الذين صفعهم الواقع غدراً.